الفصل الثالث

حكاية الزعامة المزعومة

obeikandl.com

obeikandl.com

سياسة مصر... وسياسة نوري

« مهما بلغت قوتك ، وأنت تعتمد على غيرك ، فأنت ضعيف ... وأيًا كانت قوتك ، وأنت تعتمد على نفسك ، فأنت قوي ... إننا نحن العرب أقوياء بقوميتنا وموقعنا ومصادرنا » .

جمال عبد الناصر

كانت الدعاية التي يروجها نوري السعيد ،ومن خلفه بريطانيا ، لحلفه في البلاد العربية قبل عقد صفقة الأسلحة المصرية تعتمد على أمرين اثنين :

الأول : هو أن ساسة مصر شبان قليلو الخبرة (وكان المصدر الأساسي لهذا الترويج ولا يزال هو صحف انجلترا وعلى رأسها التيمس) وأن الرئيس جمال عبد الناصر رجل لا يزال يفكر بعقلية الضابط : يمين يمين ، شمال شمال .

الثاني : أن حصول العراق على الأسلحة كسب ضخم جدًا ، ونصر للقضية العربية ضد إسرائيل ، وأنه مهما كان ثمن الأسلحة من حلف أو خلافه فإن هذا لا يقاس على الإطلاق بالحصول على الأسلحة من أجل الخطر الإسرائيلي .

وكانت هذه الدعاية تجد لها عونًا من ساسة البلاد العربية وخاصة أن فيها كلمة إسرائيل وأسلحة ضد إسرائيل ، لذلك لم يكن يجد هؤلاء الساسة غضاضة في أن يصارحوا الناس برأيهم هذا .

وبينما الدعاية للحلف تسير على هذه الخطوط ، وعلى أن في مصر ديكتاتورية عسكرية ، وعلى أن مصر لن تحصل على قطعة واحدة من السلاح

لموقفها الذي تقفه من الخلف ، وبينما تعقد التيمس مقارنة بين جيوش الدول العربية .

وتنتهي إلى أن جيش العراق سيصبح بفضل الفنيين البريطانيين والأسلحة البريطانية التي حصل عليها ، الجيش الأول في البلاد العربية ، وبينما تعمدت التيمس في هذه المقارنة أن تحط من قدر جيش مصر .

وبينما كان كل هذا يحدث وبينما كانت إنجلترا ونوري مطمئنين كل الاطمئنان إلى حلفهما وإلى سير الدعاية له .

انفجرت قنبلة صفقة الأسلحة المصرية التشيكية .

وكان دوي الانفجار عاليًا مروعًا بحيث لمس شغاف قلوب الشعوب العربية ، جميعًا ، فهبت ثلاثة برلمانات تؤيد الرئيس جمال في سوريا ولبنان وفي الأردن .

وانكشفت الدعاية التي تروجها إنجلترا ونوري .

فأما أن جمال عبد الناصر قليل الخبرة في السياسة فهذا ما أثبتت الحوادث عكسه بشكل مفزع أبسط مظاهره أن أمريكا وإنجلترا ظلتًا شهورًا طويلة في هذيان مروع على لسان ساستها وصحافتها .

وأما أن نوري قد نجح بحلفه في أن يحصل على السلاح اللازم للوقوف في وجه إسرائيل فقد اتضح أن كميات الأسلحة التي حصل عليها لم تتعد عربات إسعاف وأسلحة مضادة للدبابات والطائرات ووعدا بعشر دبابات !

بينما حصلت مصر بموجب اتفاق تجاري بحت لا قيود فيه ولا التزامات على أسلحة لم تصب إسرائيل وحدها بالزعر ، بل أصابت أيضًا أمريكا وإنجلترا.

وأكثر من ذلك حصل تحول غريب في منطق إسرائيل . فبعد أن كان بن جوريون يقيم حملته الانتخابية في الصيف الماضي على الجملة الخالدة :

« **سنفرض الصلح على العرب بالقوة** » .

تراه في ديسمبر الماضي يعلن إفلاس إسرائيل وعدم تسديدها ديونها لأنه يتوقع تصفية الموقف في الصيف .

لم يبق لدعاية إنجلترا ونوري إلا شيء واحد ، لقد انطلقوا يذيعون أن الخلاف بين سياسة مصر وسياسة نوري هو خلاف شخصي مرده إلى الزعامة.

أي إن جمال يريد أن يحقق لنفسه الزعامة على العرب ولذلك فهو مختلف مع سياسة نوري السعيد .

ومن هنا بدأ الفصل البطولي الجديد الذي دفعت إنجلترا بأبطاله إلى الميدان ليتولوا التوفيق وجمع الكلمة وتوحيد الصف .

واندفعت انجلترا في نفس الوقت تولول في التيمس على الوحدة العربية وجمع الكلمة وأن حلف بغداد لا يمنع من الوحدة العربية لولا الرئيس جمال عبد الناصر الذي يريد أن يكون زعيمًا للعرب !

فما هي سياسة مصر وما هي سياسة نوري السعيد ؟

حين وضعت مصر سياستها كان جمال عبد الناصر ينفعل بعدة عوامل :

الأول : أن الشعب المصري رفض الأحلاف منذ ١٩٥١ بطريقة قاطعة .

الثاني : أن الدفاع عن العرب يجب أن ينبثق من المنطقة معتمدًا على الضمان الجماعي العربي بدون إشراك دولة أجنبية عن المنطقة .

الثالث : التعاون مع الغرب على أساس إتاحة القوة للعرب وحل القضايا العربية حلولاً عادلة .

الرابع : أن مأساة فلسطين القريبة والدرس الذي تلقيناه بالدم على أيدي إنجلترا وأمريكا اللتين صنعتا إسرائيل لابد وأن يكون لهما تقدير عميق ، خاصة وأن إسرائيل خطر يهدد الأمة العربية كافة ، وأن إنجترا وأمريكا ظلتا دائمًا من خلفها حتى في العدوان .

الخامس : أنك مهما بلغت قوتك وأنت تعتمد على غيرك فأنت ضعيف، وأيًا كانت قوتك وأنت تعتمد على نفسك فأنت قوي وإننا نحن العرب أقوياء بقوميتنا وموقعنا ومصادرنا .

وعلى هذه الاعتبارات والأسس قامت سياسة مصر صريحة واضحة بسيطة .

فحين عرض الغرب على مصر الأحلاف رفض الرئيس حمال لأن معناها أن نعتمد على غيرنا ، وقد جربنا خلال سبعين سنة معنى هذ الاعتماد .

وأمر آخر أشد خطورة ، وعجيباً . . . إننا بدخولنا حلفًا مع إنجلترا وأمريكا سنوكل أمرنا إذا ما اعتدت علينا إسرائيل إلى صانعي إسرائيل !

فأي منطق أو عقل أو سياسة أو كرامة في هذا ؟

وهكذا قامت سياسة مصر على المبادئ الآتية :

١ ـ أن مصر جزء من الكيان العربي الذي لا يتجزأ .

٢ ـ لا سيطرة ولا استعمار ولا أي قيد من أية ناحية .

٣ ـ الذي يدافع عن العرب هم العرب أنفسهم ، ويجب أن تنبعث القوة للدفاع عن هذه المنطقة من داخلها ، لا من خارجها أو اعتمادًا على دولة

كبرى في حلف أو ميثاق .

٤ ـ احترام لمن يحترم استقلالنا ومشيئتنا .

٥ ـ يد ممدوة بالصداقة للعالم أجمع على قدم المساواة وتستطيع أن تجمل كل هذا في كلمتين . . . استقلال تام ، أو في معنى آخر بسيط هو سيادة الشعب سيادة كاملة على أرضه ورزقه ومصيره .

فما هي سياسة نوري السعيد ؟

وأود هنا أن أعيد ما قلته من أن سياسة نوري السعيد ليست سياسة شعب العراق ، فالشعب العراقي يعرف تمامًا ما يريد ، وما يريده هو ما يريده شعب مصر وما يريده كل شعب عربي .

لقد قلت أن نوري السعيد جريء لأنه يجاهر برأيه ، وها هو رأيه كما يعرفه كل عربي :

إن نظرية نوري هي أن البند ١٥ من ميثاق الأمم المتحدة « وهو الخاص بالاتفاقيات الإقليمية » يتيح لنا من خلاله أن نصنع تنظيمًا للدول العربية ، ونربطه بحلف البلقان من أجل الدفاع ومن رأي «نوري» أن العرب لا يستطيعون أن يقفوا وحدهم ، كما يرى في الوقت ذاته أننا لا نستطيع أن نستغني عن الغرب ، وأننا إذا استطعنا أن نكسب الغرب إلى جانبنا ضد إسرائيل فإن هذا يكون هو الحلم الذي يراودنا .

ونحن ، في رأي نوري السعيد ، لا نستطيع أن نكسب الغرب إلى جانبنا بالكلام ، بل نستطيع ذلك بالعمل .

وكانت نظرية «نوري» أن في استطاعتنا نحن العرب أن نتمم العملية على خطوتين :

الخطوة الأولى : هي أن نمضي مع لغرب ، ونأخذ أسلحة دفاعية مضادة للطائرات ومضادة للدبابات وبعد ذلك تأتي .

الخطوة الثانية : وهي أن نطلب من ،لغرب السلاح الثقيل .

ويرى نوري السعيد أننا إذا أخذنا الغرب في صفنا ، فإن إسرائيل سترتمي من خلال هذا في أحضان الشيوعية ، والنتيجة التي يراها تبعًا لذلك هي أن إسرائيل ستصبح شيوعية ، وعندئذ يكفينا الغرب مؤونة القضاء عليها .

obeikandl.com

هل هو خلاف شخصي ؟

لقد استعرضت لك أيها الأخ العربي سياسة مصر ، وأوردت لك سياسة نوري السعيد ، وهي السياسة التي لا يخفيها أو ينكرها نوري السعيد بل إنه كما قلت شجاع لأنه يجاهر بها برغم أن شعب العراق لا يؤمن بها !

وهنا يحق لي ولك أيها الأخ العربي أن نتساءل :

ما هي حكاية الوساطة بين مصر والعراق وكيف تكون هذه الوساطة ، أي إلى أي هدف يجب أن تهدف ، وهل استعمال الكلمات البراقة كالوحدة العربية وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف حقيقة أريد بها وجه الله أم حقيقة أريد بها باطل ؟

حين ذهبت إلى لبنان في شهر ديسمبر ١٩٥٥ سمعت البعض يردد أن الخلاف بين مصر والعراق خلاف شخصي على الزعامة .

وحين أتى على العرب حين من الدهر هبوا ليستنكروا فيه الحلف العراقي التركي البريطاني على أساس أنه طعنة قاتلة للقومية العربية لأن صانعيه هم صانعوا إسرائيل ، لم تجد إنجلترا وأمريكا وتابعهم نوري السعيد خيرًا من أن يلقوا بين صفوف شعوب العرب وحكامهم بحكاية الزعامة هذه وكأن معارضة مصر في نظرهم لم تكن إلا للزعامة لا للقضية التي تخان ، ولا للوحدة التي تمزق ، ولا للأسلوب الذي يراد به قيام إسرائيل ووجودها وجودًا شرعيًّا ، فالخطة كانت أن يدخل العرب مع إنجلترا وأمريكا هذا الحلف ، ثم تدخل إنجلترا وأمريكا من الناحية الأخرى في اتفاق مع إسرائيل تحت ستار الدفاع عن المنطقة ، وإسرائيل طبعًا عضو في هذه المنطقة !

وحين أراد الإنجليز في صحفهم أن يعلقوا لم يجدوا خيرًا من هذا التعليق يثيرون به النفوس ويبذرون به بذور الفتنة فقالوا أن مصر تريد الزعامة وأن جمال عبد الناصر يصرعلى أن يكون الزعيم الأوحد .

ونحن هنا في مصر نعتبر هذه الدعاية تسفيهًا للعقول لسبب بسيط جدًا هو أن هذه الثورة قامت لتقضي على الانقسام والخلاف من أجل الشخصيات وهو ما عانى منه هذا البلد ويعاني منه كثير من شعوب العرب اليوم بسبب التناحر الذي يقوم بين الرجالات في البلد الواحد لأسباب شخصية بحتة لا تمت إلى الصالح العام بسبب .

ومن جهة أخرى فإنني أريد أن أناقش موضوعيًا هذه الزعامة إذا صح أن وجدت فإنه يقال مثلاً إن أمريكا وإنجلترا تتنافسان على الزعامة في الشرق الأوسط أو في منطقة كذا من العالم فماذا يعني التنافس على الزعامة ؟

أن الرجل العادي يستطيع أن يدرك في غير صعوبة ولا تعقيد أن التنافس على الزعامة يكون مرده دائمًا إلى المصالح ، بمعنى أنه إذا قيل أن أمريكا وبريطانيا تتنافسان على الزعامة في الشرق الأوسط وهو صحيح إلى حد ما ، فإن ذلك يعني أن لكل من أمريكا وبريطانيا مصالح تريد أن تحافظ عليها عن طريق فرض زعامتها وبالتالي كلمتها حتى تستطيع أن تأمن على مصالحها في هذه المنطقة وحتى تستطيع أن تحقق أكبر كسب ممكن لمصالحها في هذه المنطقة .

والمحافظة على هذه المصالح تحتم على الدولة الزعيمة أن توجد لها في كل بلد من بلاد هذه المنطقة حكامًا ورجالاً من أهل البلد نفسه يتولون رعاية مصالح هذه الدولة الزعيمة لهم سواء في شكل ثروة يقيدها ، أو سلطان يحققه عن طريق البقاء في الحكم بمساندة هذه الدولة ، وفي الماضي كانت

تلجأ إنجلترا مثلاً لفرض زعامتها ورعاية مصالحها إلى إبقاء جيش احتلال بريطاني في البلد الذي تريد أن تستعمره ثم تطورت الفكرة إلى عقد معاهدة تجعل بها هذا الاستعمار شرعيًا على أيدي زعماء من هذا البلد مع إبقاء قوات احتلال لها ، ثم تطورت الفكرة مرة أخرى إلى آخر ثوب يناسب القرن العشرين وهو أن تسحب قواتها بعد أن أصبحت تكاليفها غالية وتستعيض عنها بما يعوض وجود هذه القوات وقيام المعاهدة وهو الحلف .

أليست هذه هي الحقيقة التي مرت بنا جميعًا أيها الأخ العربي في كل قطر من أقطارنا ؟ وأليس هذا هو زي الاستعمار الذي غيره كلما صدمه الوعي ؟

إنني أنتزع هذا التفسير من صميم تاريخنا وحياتنا ، فإذا أشاع الإنجليز والأمريكان والسيد نوري السعيد عميلهم ومساعدوه اليوم أن جمال عبد الناصر يريد أن يكون الزعيم الأوحد للعرب وإنه لذلك يعارض سياسة إنجلترا وأمريكا في الوطن العربي فإن هدف هذه الإشاعة يكون واضحًا ومفهومًا كالشمس ، فانجلترا لا تريد أن يقوم بين العرب رجل يبصرهم بماضيهم وحاضرهم ولا أن يذكرهم بمأساة فلسطين ، ولا أن يصارح الشعوب العربية بحقيقة ما هي فيه ، ولا أن تبلغ به الجرأة فلا يستمع لأوامرهم أو يخضع لمشورتهم ، لأن معنى هذا كله أن زعامتهم ستتلاشى أو بمعنى آخر أن مصالحهم التي يرغمون الشعوب على تحقيقها لهم ستصبح مهددة لأن الوعى العربي القومي الشعبي سيجرفها شاء الحكام أم لم يشاءوا .

ورب سائل يقول : وما هي هذه المصالح التي لبريطانيا ؟

فأقول :

١ ـ الزيت في العراق وفي الخليج الفارسي وفي البوريمي وفي المحميات،

ودخل الحكومة البريطانية من هذا الزيت الذي يخرج من الخليج الفارسي وحده يشكل رقمًا يقدر بحوالي الستمائة مليون دولار ، هذا بخلاف تأثر دخل الحكومة البريطانية من زيت عبدان إذا ما فقدت سيطرتها وزعامتها في المنطقة العربية وهذا أمر يطول شرحه .

٢ ـ الأمة العربية والشرق الأوسط سوق تجارية لمنتجات بريطانيا الصناعية وبريطانيا تقوم حياتها على الصناعة ، وليس في هذه المنطقة صناعة على الإطلاق ومن مصلحة بريطانيا أن لا تقوم فيها صناعة إلى يوم القيامة ـ وفي الكتب المدرسية التي صنعها الإنجليز لنا كانوا يعلموننا أن مصر بلد زراعي وأنها لن تصلح لأن تكون بلدًا صناعيًّ لعدم وجود الفحم والحديد اللذين يوجدان في بريطانيا وحدها .

٣ ـ تحتل الأمة العربية رقعة ذات موقع استراتيجي خطير من العالم .

ويكفي لكي تدرك ذلك أن تعلم أن إنجلترا انتصرت في حربين عالميتين جبارتين بميادين التدريب الفسيحة في مصر وقواعدها في الشرق الأوسط التي كانت تمد جميع ميادين القتال بالجند المدربين والسلاح والعتاد والمؤن لأنها في مركز متوسط من العالم كله .

٤ ـ يكمن في باطن أرض العرب ثلثا البترول في العالم أو أكثر ، والبترول علاوة على دخل الحكومة البريطانية منه يشكل العصب الحاسم لصناعتها وللحرب وللسلم على السواء .

هذه بعض مصالح بريطانيا التي تدعوها إلى الاحتفاظ بالزعامة والتي تدعو أمريكا إلى منافستها على الزعامة .

فما هي المصالح التي يريد جمال عبد الناصر أن يحققها بفرض زعامته الوحيدة على هذه المنطقة كما تقول إنجلترا وأمريكا وعميلهم نوري السعيد ؟

ماذا يريد جمال ؟

كلنا في الهم شرق ... وهمنا في الشرق كان ولا يزال في داء الزعامة ، وفي محنة الأحقاد ... وجمال أبدا لن يداوي الداء بالداء ... وإنما شرعه الحسم بشافي الدواء .

ما هي المصالح التي يريد جمال عبد الناصر أن يحققها بفرض زعامته الوحيدة على هذه المنطقة كما تقول إنجلترا وأمريكا ونوري السعيد وأذياله ؟

هل طفح الإنتاج الصناعي في مصر لدرجة أنه أصبح ينافس إنتاج بريطانيا وأمريكا . ولذلك يريد جمال أن يطردهم جميعًا ليحقق مصالح في هذه الناحية ؟

وهل يريد جمال عبد الناصر أن يعد قواعد في البلاد العربية لكي يثب منها على أوروبا ؟

أم هل يريد جمال عبد الناصر أن يكمل ميزانيته من بترول الخليج الفارسي وبترول العراق ؟

وهل يريد جمال عبد الناصر أن تحتل جيوشه هذه البلاد العربية ليفرض زعامته الوحيدة لأن له أطماعًا إقليمية في هذه البلاد ؟

أم هل يريد جمال عبد الناصر أن يؤمن نفسه ضد الحرب الباردة وضد الكتلة الشرقية ولذلك يلجأ إلى فرض الأحلاف عن طريق الزعامة ؟

ما هي المصلحة التي يسعى إليها جمال عبد الناصر عن طريق فرض الزعامة الوحيدة المزعومة ؟

إن الأمر لا يعدو أن يكون تخريفًا وهراء تريد إنجلترا وأمريكا بهما بلبلة الأفكار خصوصًا وأن في الأمة العربية إلى اليوم من لا يزالون يؤمنون بالزعامات والأطماع الشخصية ويؤمنون فوق كل شيء وقبل كل شيء بالولاء الأعمى للغرب والإخلاص لبريطانيا وحليفتها أمريكا حتى ولو كان هذا الولاء لصانعي إسرائيل .

بعد كل هذا سأقول لإنجلترا وأمريكا وأبطال الفصل اجديد في قصة الوحدة العربية الذين أكتب من أجلهم هذه السطور .

سأقول لهم جميعًا :

إذا كانت زعامة جمال عبد الناصر تعنى أن يستقل العرب عن كل سيطرة أو قيد أجنبي فإن رجل الشارع العربي يرحب بها كما سمعتم بآذانكم ورأيتم بعيونكم .

وإذا كانت زعامة جمال عبد الناصر تعنى أن يسيطر العرب في وطنهم على أرضهم وسمائهم ومقدراتهم ويختاروا لأنفسهم بمحض مشيئتهم مصيرهم الذي يزعمون ، فإن رجل الشارع العربي يرحب بهذه الزعامة .

وإذا كانت زعامة جمال عبد الناصر تعنى أن مستقبلاً كريمًا ينتظر هذه الأمة العربية عليها أن تسطره بمداد من الكرامة كما سطرت تاريخًا نظيفًا مضيئًا للعالم كله من قبل فإن رجل الشارع العربي يؤمن بزعامة جمال ويهتف من كل قلبه لجمال .

وأقول لكم جميعًا يا إنجلترا ويا أمريكا ويا أعوان الاستعمار وأنا أعرف جمالا كما أعرف نفسي ـ إن جمالاً يريد هذا كله بل وأكثر منه .

ولكنه لم يفكر لحظة واحدة في مسألة لزعامة .

إن جمالا صاحب دعوة ، وهو يؤمن أن مسألة الزعامات كانت من تقاليد عهد الانحلال يوم أن كان المستعمر يحطم في رجالنا كل روح إنشائية بناءة بشغل نفوسهم بالزعامة والأحقاد والمجد الشخصي !

وما يعمله جمال اليوم هو أن يدعو بما يحسه في نفسه نتيجة لآلام الماضي ويأسه ، لذلك تستجيب له الشعوب قبل الحكام ثم لا يلبث أن يستجيب الحكام لأن الإرادة هي إرادة الشعوب لا إرادة الحكام .

وأمر آخر يحسه جمال يا حضرات الزعماء والأقيال هو أننا كلنا في الهم شرق .

وهمنا في الشرق كان ولا يزال في داء الزعامة وفي محنة الأحقاد .

وجمال أبدا لن يداوي الداء بالداء وإنما شرعه الحسم بشافي الدواء .